سورة يوسف

٤٩٠ ـ قوله تعالى: ﴿.. وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

ذكر الرؤية ثانيًا، جوابًا لسؤال مقدر من «يعقوب» عليه السلام، كأنه قال ليوسف بعد قوله: ﴿إنى رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر﴾ كيف رأيتها؟ سائلاً عن حال رؤيتها، فقال مجيبًا له: رأيتهم لى ساجدين.

وقيل: ذكره توكيدًا، وجمع الكواكب فى قوله: ﴿رأيتهم لى ساجدين﴾ جمع العقلاء، لوصفه لها بما هو من صفات العقلاء وهو السجود، كقوله تعالى: ﴿.. قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ..﴾ [النمل: ١٨].

٤٩١ ـ قوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ..﴿٩﴾﴾ الآية. هذا قول أخوه يوسف.

إن قلت: كيف قالوا ذلك وهم أنبياء؟

قلت: لم يكونوا أنبياء على الصحيح، وبتقدير أنهم كانوا أنبياء، إنما قالوا ذلك قبل نبوتهم. والجواب، بأن ذلك من الصغائر، أو بأنهم قالوه فى صغرهم ضعيف.

٤٩٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

إن قلت: كيف قالوا ذلك، مع أنهم كانوا بالغين عاقلين، وأنبياء أيضًا على قول؟ وكيف رضى يعقوب بذلك منهم على قراءة النون؟

قلت: كان لعبهم المسايفة والمناضلة، يؤيده ﴿إنا ذهبنا نستبق﴾ وسموه لعبًا لأنه فى صورة اللعب. قال الفخر الرازى: ويرد على أصل السؤال أن

---

٤٩٢ ـ راجع جامع البيان للطبرى وفيه «أن عامة قراءة أهل المدينة (يرتع ويلعب) وقراءة النون للبصريين» ١٢/ ٩٤.

يقال: كيف يتورعون عن اللعب، وهم قد فعلوا ما هو أعظم حرمة من اللعب وأشد، وهو إلقاء أخيهم فى الجب على قصد القتل.

قلت: لم يكن وقت إلقاء أخيهم يوسف فى الجب، وقت طلب تورعهم عن اللعب ولا قتله، وأصل السؤال إنما وقع على طلب التورع المتقدم على الإلقاء، لكن يطلب الجواب عن لقائهم له فى الجب من أن ذلك من المعاصى؟ ويجاب بما مر فى الجواب عن قولهم: ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا﴾.

٤٩٣ ـ قوله تعالى: ﴿.. وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾. ﴿وأوحينا إليه﴾ أى وحى إلهام لا وحى رسالة، لأنه يومئذ لم يكن بالغًا، ووحى الرسالة إنما يكون بعد الأربعين.

٤٩٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ قاله هنا بدون ﴿واستوى﴾ وقاله فى «القصص: ١٤» به، لأن يوسف أوحى إليه فى الصغر، و«موسى» أوحى بعد أربعين سنة، فقوله: ﴿واستوى﴾ إشارة إلى تلك الزيادة.

٤٩٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ .. ﴿٢٥﴾﴾ الآية. وحد الباب هنا، وجمعه قبل فى قوله: ﴿وغلّقت الأبواب﴾ لأن إغلاق الباب للاحتياط لا يتم إلا بإغلاق الجميع، وأما هروبه منها فلا يكون إلا إلى باب واحد، حتى لو تعددت أمامه لم يقصد منها أولاً إلا الأول، فلهذا وحد الباب هنا وجمعه ثم.

٤٩٦ ـ قوله تعالى: ﴿.. لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ كرر «لعل» رعاية للفواصل، إذ لو قال: لعلى أرجع إلى الناس فيعملوا بحذف النون، جوابًا لـ «لعل» لفاتت الرعاية «أى رعاية الفواصل».

٤٩٧ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

---

٤٩٤ ـ انظر تعريف بلوغ الأشد عند علماء اللغة، وتأمل اختلافهم فى اللسان ٤/ ٢٢١.

إن قلت: كيف قال ذلك، مع أن الأنبياء عليهم السلام أعظم الناس، زهدًا فى الدنيا، ورغبة فى الآخرة.

قلت: إنما طلب ذلك ليتوصل به، إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامةالحق وبسط العدل ونحوه، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك.

٤٩٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ..﴿٥٩﴾﴾.

قاله هنا بالواو، وقاله بعد بالفاء «٧٠»، لأنه ذكر هنا أول مجيئهم إلى يوسف فناسبته الواو، الدالة على الاستئناف. وذكر بعد عند انصرافهم عنه، عطفًا على ﴿لما دخلوا﴾ فناسبته الفاء الدالة على الترتيب والتعقيب.

٤٩٩ ـ قوله تعالى: ﴿.. ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

إن قلت: كيف جاز ليوسف أن يأمر المؤذن بأن يقول ذلك، مع أن فيه بهتانًا، واتهام من لم يسرق بأنه سرق؟

قلت: إنما قاله «تورية» عما جرى منهم مجرى السرقة، من فعلهم بيوسف ما فعلوا أولاً. أو كان ذلك القول من المؤذن، بغير أمر يوسف عليه السلام.

أو أن حكم ذلك حكم «الحيل الشرعية» التى يتوصل بها إلى مصالح دينية، كقوله تعالى لأيوب: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ..﴾ [ص: ٤٤] وقول إبراهيم فى حق زوجته: «هى أختى» لتسلم من يد الكافر.

٥٠٠ ـ قوله تعالى: ﴿.. إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾. ﴿من روح الله﴾ أى من رحمته، ﴿إلا القوم الكافرون﴾.

إن قلت: من المؤمنين من ييأس من روح الله، لشدة مصيبته، أو كثرة ذنوبه، كما فى قصة الذى أمر أهله إذا مات أن يحرقوه. الحديث ثم أن الله تعالى غفر له؟

---

٤٩٩ ـ راجع تفسير الطبرى ١١/١٣.

٥٠٠ ـ انظر القرطبى.

قلت: إنما ييأس من روح الله الكافر، لا المؤمن عملاً بظاهر الآية، فكل من أيس من روح الله فهو كافر، حتى يعود إلى الإيمان، ولا نسلم أن صاحب القصة مات آيسًا، ولم يسمح له الرجوع عن وصيته.

٥٠١ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً..﴿٩٦﴾﴾ الآية. قال هنا وفى العنكبوت آخرًا فى قوله تعالى: ﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطًا﴾ بذكر ﴿أن﴾.

وقال فى هود: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطًا﴾ وفى العنكبوت أولاً ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ بحذفها بنيتها على جواز الأمرين.

والقول بأن ذكر «أن» يدل على وقوع جواب «لما» حالاً، بخلاف ما إذا حذفت، يرد بأن آية هود، وآية العنكبوت، التى ذكر فيها «أن» متحدثان شرطًا وجوابًا، مع أن «أن» ذكرت فى إحداهما وحذفت من الأخرى. إلا أن يقال أنها إذا لم تذكر، لم يلزم وقوع جواب «لما» حالا.

٥٠٢ ـ قوله تعالى: ﴿.. وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ..﴿١٠٠﴾﴾ الآية.

إن قلت: كيف جاز لهم أن يسجدوا ليوسف والسجود لغير الله حرام؟

قلت: المراد أنهم جعلوه كالقبلة، ثم سجدوا لله تعالى شكرًا لنعمة وجدان يوسف، كما تقول: سجدت وصليت للقبلة. واللام للتعليل، أى لأجله سجدًا لله، ومنه قوله تعالى: ﴿رأيتهم لى ساجدين﴾ أى إنما سجدت لله لأجل مصلحتى، والسعى فى إعلاء منصبى.

٥٠٣ ـ قوله تعالى: ﴿.. وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ..﴿١٠٠﴾﴾.

إن قلت: لم ذكر «يوسف» عليه السلام، نعمة الله عليه فى إخراجه من السجن، دون إخراجه من الجب، مع أنه أعظم نعمة، لأن وقوعه فى الجب كان أعظم خطرًا؟

قلت: لأن مصيبة السجن كانت عنده أعظم، لطول مدتها، ولمصاحبته الأوباش وأعداء الدين فيه، بخلاف مصيبة الجب، لقصر مدتها، ولكون المؤمن له فيه جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة.

أو لأن فى ذكر الجب «توبيخًا وتقريعًا» لاخوته بعد قوله: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾.

٥٠٤ ـ قوله تعالى: ﴿.. أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

إن قلت: كيف قال يوسف ذلك، مع علمه بأن كل نبى لا يموت إلا مسلمًا؟

قلت: قاله إظهارًا للعبودية والافتقار، وشدة الرغبة فى طلب سعادة الخاتمة، وتعليمًا للأمة، وطلبًا للثواب.

٥٠٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

إن قلت: كيف قال ذلك، مع أن الإيمان والشرك لا يجتمعان؟

قلت: معناه: وما يؤمن أكثرهم بأن الله خالقه ورازقه، وخالق كل شىء قولاً، إلا وهو مشرك بعبادة الأصنام فعلاً.

أو أن المراد به المنافقون، يؤمنون بألسنتهم قولاً، ويشركون بقلوبهم اعتقاداً.

٥٠٦ ـ قوله تعالى: ﴿.. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴿١٠٩﴾﴾ قاله هنا، وفى «الحج»[1]، وفى آخر «غافر»[2] بالفاء، وقاله فى «الروم»[3]، و«فاطر»[4]، وأول «غافر»[5] بالواو. لأن ما فى الثلاثة

(١) فى الحج ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ آية (٤٦).
(٢) فى غافر ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم..﴾ آية (٨٢).
(٣) فى الروم ﴿أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم..﴾ آية (٩).
(٤) فى فاطر ﴿أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم..﴾ آية (٤٤).
(٥) فى أول غافر ﴿أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة..﴾ آية (٢١).

الأول، تقدمه التعبير فى الإنكار بالفاء فى قوله هنا ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية﴾ وفى الحج ﴿فهى خاوية على عروشها﴾ وفى آخر غافر ﴿فأى آيات الله تنكرون﴾؟

وما فى الثلاثة الأخيرة، تقدمه التعبير بالواو فى قوله فى الروم: ﴿أو لم يتفكروا فى أنفسهم﴾ وفى فاطر: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ وفى أول غافر ﴿وأنذرهم يوم الأزفة﴾ ﴿وما تخفى الصدور﴾ ﴿والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء﴾.

« تمت سورة يوسف »